﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ [الرّعد: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّرغيب بعد التّرهيب، بذِكر ما ادّخر الله للمتّقين، عقب ما أعدّ للكافرين

لمّا ذكر النّظم الكريم في الآية السّابقة عذاب الكفّار في الدّنيا والآخرة، أتبعه في هذه الآية بذكر ثواب المتّقين[1]، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾. ومن المناسبة أيضًا: أنَّ الله تعالى لمّا توعّد "الكافرين في الآيات السّابقة على تفريطهم في جانبِ الله واستهزائهم برُسُله؛ تشوّفتِ النّفس إلى الجزاء المُعدّ للّذين آمنوا، فكأنّه قيل: فما جزاء أهل الإيمان؟ فقيل: الجنّة"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّثَلُ﴾: أصلُ كلمة (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، يُقال: هذا مِثْلُ هذا؛ أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ بمَعْنًى واحدٍ[3]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة، ليُبيّن أحدُهما الآخرَ ويُصوِّرَه. نحو قولهم: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ)[4]، فإنَّ هذا القول يُشبه قولكَ: (أهْمَلْتَ وقْتَ الإمْكانِ أمْرَكَ)[5]، وعلى هذا الوجه ما ضَرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، والمِثْلُ يُقالُ على وجْهَيْنِ: أحَدُهُما: بِمَعْنَى المِثْلِ نحو شَبَهٍ وشِبْهٍ، قالَ بَعْضُهُم: وقَدْ يُعَبَّرُ بِهِما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/46.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن سلّام، الأمثال، ص: 247، والعسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/324.
(5) نور الدّين اليوسيّ، زهر الأكم في الأمثال والحكم: 1/21.

عن وصْفِ الشَّيْءِ، نحوَ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والثّاني: عِبارَةٌ عَنِ المُشابَهَةِ لِغَيرِهِ في مَعْنًى من المَعاني أيَّ مَعْنًى كانَ، وهو أعَمُّ الألفاظِ المَوضوعَةِ لِلمُشابَهَةِ.

والمُثول: الانتصاب. والتَّمثال - بالفتح -: التَّمثيل، والتِّمثال - بالكسر -: الصّورة، ومثَّله له: صوَّرهُ، وتمثَّل: تصوَّر، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: 17]، وتَمثَّل بالشَّيء: ضرَبَه مَثَلًا(1).

والمقصود بالمَثَلِ في الآية: الصِّفَةُ العَجيبَةُ، وهو مُستَعارٌ مِنَ المَثَلِ الّذي هو الشَّبيهُ في حالةٍ عَجيبَةٍ، أُطْلِقَ على الحالَةِ العَجيبَةِ غَيْرِ الشَّبيهَةِ؛ لأنَّها جَديرَةٌ بالتَّشْبيهِ بها(2).

2) ﴿أُكُلُهَا﴾: (أكل): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، ومعناها: التَّنَقُّصُ. قالَ الخَليلُ: الأَكْلُ معروفٌ، والأَكْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ حتَّى يَشْبَع، والأُكْلَةُ اسْمٌ كاللُّقْمَةِ(3)، والأُكُلُ: بِضَمِّ الهَمْزَةِ والكافِ هو المأكولُ، والأَكَلَةُ: جَمْعُ آكِلٍ، والمأكَلُ: ما يُؤْكَلُ، كالمَطْعَمِ، والمُؤْكِلُ: المُطْعِمُ(4)، والأُكْلُ: طُعْمَةٌ كانَتِ المُلوكُ تُعْطيها الأشرافَ، والأُكْلُ أيضًا: الرِّزق، والجَمْعُ: آكالٌ(5)، والإكْلَةُ: هَيْئَةُ الأكْلِ، والإكْلَةُ أيضًا: الحالُ الّتي يأْكُل عليها مُتَّكِئًا أو قاعِدًا(6)، والأكولَةُ: الشّاةُ تُرْعَى للأكْلِ لا لِلبَيْعِ والنَّسْلِ(7)، والمقصود بالأُكُلِ في الآية: المَأْكول، مع اختلافِ طعومِهِ وتَفاضُلِه.

3) ﴿دَآئِمٌ﴾: أصْلُ مادَّة (دوم): يَدُلُّ على السُّكونِ واللُّزومِ، يُقالُ: دامَ الشَّيءُ يَدومُ، إذا سَكَنَ، والماءُ الدّائِمُ: السّاكِنُ، يُقالُ: أدَمْتُ القِدْرَ إدامَةً؛ إذا سَكَّنْتَ غَلَيانَها بالماءِ، ومنه: دامَ الشَّيءُ: إذا امتدَّ عليه الزَّمان، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117](8)، واستَدَمتُ الأمرَ: تأنَّيت فيه، والظِّلُّ الدَّوْم: الدّائم، والدَّوامُ على الشَّيءِ: عَدَمُ الانقطاعِ عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، وهو كِنايةٌ عَنِ التِفافِ الأشْجارِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مثل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/482.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (أكل).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أكل).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دوم).

بِحَيثُ لا فَراغَ بَينَها تَنفُذُ منهُ الشَّمْسُ، وقوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج: 23][1]، وهذا المعنى في كُلِّ عَمَلٍ بِحَسَبِ ما يُعتَبَرُ دَوامًا فيهِ، وهو المُراد هنا في الآية.

4) ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾: أصلُ الظِّلِّ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيره، تَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَلٍ بالنَّهار[3]، وظِلُّ النَّهارِ: لونُه إذا غَلَبَتْه الشَّمسُ، والظِّلُّ: نَقيضُ الضَّحِّ، وبَعْضُهُم يَجْعَلُ الظِّلَّ الفَيْء، وقالوا: ظِلُّ الجَنَّة، ولا يُقالُ: فَيْؤُها؛ لأنَّ الشَّمْسَ لا تُعاقِب ظِلَّها فيكون هُنالِكَ فَيْءٌ، إنَّما هي أبدًا ظِلٌّ؛ ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ أراد وظِلُّها دائِمٌ أيضًا[4]. ويُعبّر بالظِّلِّ عن العِزَّة والمَنَعة، وعن الرَّفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ﴾ [المرسلات: 41]؛ أيْ: في عِزَّة ومَناع، والظُّلَل: جمعُ ظُلَّةٍ، كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقال فيما يُستوْخَم ويُكره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171][5]، والمقصود بالظِّلِّ في آية سورة الرّعد: الظِّلُّ الدّائم الحاصِل مِنَ التِفافِ الأشجارِ في الجَنَّةِ لكَثْرَةِ أوراقِها.

5) ﴿عُقۡبَى﴾: أصلُ مادَّة (عقب): يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقيبُهُ[6]، والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ: آخِرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبَةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيْء ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثَرٍ ونَتيجةٍ[7]. قال الرّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ بالثَّواب، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]. والعُقوبَةُ والمعاقبةُ والعِقاب يختصُّ بالعذاب، قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٦﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ [الحشر: 4][8]، وسُمّيت العقوبةُ بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوباتٌ[9]، والمقصود

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (أكل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الخليل، العين: (ظل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (ظلل).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ92.
(8) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بالعُقبى في الآية: العاقِبَةُ، وهي الشَّيءُ الَذي يعقبُ؛ أيْ: يَقَعُ عَقِبَ شيءٍ آخَرَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيانُ ما أعدَّه الله تعالى لأهل التَّقوى، من أصناف النَّعيم في جنّة المأوى

بيَّنت هذه الآية ما أعدّه الله تعالى للمُتَّقين من نعيم ذُكِرَتْ أوصافُه بقوله سُبحانَهَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآيةَ؛ والمَعنى: صِفةُ الجنَّةِ - الَتي وعدَ الله بها المتَّقينَ في الآخرةِ - أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها، وما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ، تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الّذين امتَثَلوا ما أمَرَهم الله به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ بالله هي النّارُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الجمع بين البشارة والنّذارة، منهج دعويٌّ مكرّسٌ بجدارة

لم تُعطف الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، لقصْدِ الرّبط بينها وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ [الرّعد: 29]، وقد ذكر هنا بمناسبة ذكر ضِدّه قبله في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: 34][3]، فلمّا ذُكِر العذابُ؛ حسُن أن يُتْبَعَ بنقيضه؛ لِما في الجمع بينهما من زيادة التّبشير والتّرهيب.

سرُّ التّعبير بالمثل دون الشّبه في الآية:

المَثَل يشير إلى غرابة الوصف لا إلى التّشبيه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمَثَل دون الشّبَه في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنّه لم يرد المشابهة، بل بيان أنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/325، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

صفتها عجيبةٌ غريبة كغَرابة المَثَل، فهو وصف للتّقريب ابتغاء التّفهيم؛ إذِ المَثَل إنّما سار بين النّاس لغرابته ولكونه يُفهِّم الحالَ الموصوفة[1]، فوصف الجنّة من الغرابة والعجب بمكان أن يكون جديرًا بأن يكون مُشبّهًا بهِ، فإنّ وصفَها "في الجلال، وعلوّ الجمال، وكرم الخلال، ممّا تعالى عن المنال، إلّا بضرب الأمثال، فقيل: ما مثلها؟ فقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى﴾"[2].

ولأنّ المثل يُباينُ الشّبه؛ فالمثل أعمُّ والشّبه أخصُّ، وذلك لأنَّ المِثليّة تقتضي الاتِّفاق في الذّات والصِّفة؛ فهي تُفيد المطابقة، بخلاف الشّبه فيدلُّ على المشابهة في بعض الصّوَرِ لا كلِّها، وعلى هذا جاء التَّعبير القرآني بالمَثل؛ للدِّلالة على أنَّ ما قصَّه القرآنُ عن الجنَّة - وهي غيبٌ عنا - حقيقةٌ واقعة؛ لأنَّ الّذي وصفها هو خالقها سُبحانه.

سرّ التّعبير بالمَثَل دون الوصف في الآية:

التَّعبير بالمَثَل مسلك يلحق غير المعلوم بالمعلوم؛ لتقريب المفهوم

جاء التّعبير القرآنيّ بالمَثَل في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، دون الوصف بأن يقول: (وصف الجنة)؛ للإشارة إلى عجز اللّغة عن التّعبير عمّا في الجنَّة؛ فإذا أراد الله سُبحانَهُ أن يُعبِّر عمّا فيها من النَّعيم، جاء ذلك عن طريق المَثَل لا الوصف؛ لأنَّ الله يعلم أنَّ لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجودٌ في حياتنا؛ لأنَّ الألفاظ الّتي نتخاطب بها نحن، قد وُضعت لمعانٍ نعرفها، وإذا كان في الجنَّة أشياء لم ترها عينٌ، ولم تسمعها أذنٌ، ولم تخطر على قلب بشر؛ فلا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤَدّي إلى وصف حقيقة الجنّة؛ لذلك يضرب الله لنا المَثَل بما نراه ونعرفه للتّقريب. ويؤكّد ذلك أنَّ التَّعبير القرآنيّ وردَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولم يقل: الجنّة مباشرة؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/154.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/353.

المَثَل يُعطي المتلقّي صورةً سمعها عن واقعٍ لا يعلمه؛ فيأتي التّعبير بالمَثَل ليلْحِقَ غيرَ المعلوم بالمعلوم؛ لنأخذ منه الحكمة[1].

سرُّ التّعبير بالمفرد ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾:

لفظ الجنّة يُنبئ عن منازلها وطبقاتها، فهو أوعب في الدّلالة عن المُراد

آثر القرآن الكريم التّعبير بالمفرد ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ دون الجمع (الجنّات)؛ لأنَّ اللّامَ تدلُّ على الجنس، والمُراد بها: الدّار الّتي أعدَّها الله للثّواب، وهي مشتملة على جنّاتٍ كثيرة، تكون كلُّ جنَّةٍ منها على قدر الثّواب المُعدِّ للعاملين، كلٌّ على قَدْرِ درجته، ويؤكِّد ذلك أنَّ الفردوس هو أعلى الجنّات، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وأَعْلَى الْجَنَّةِ»[2].

دلالة التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِى﴾:

استدعاء صورة الجنّة المذكورة في السّياق، وعْدًا بالفحوى، لأهل التّقوى

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ للإحالة على الصّورة الّتي سبق للنّظم الكريم أن بيّنها للجنّة في سابق التّنزيل؛ لأنّها معهودة في الذّكر والأذهان، فالتّعبير بالموصول في سياق التّمثيل للجنّة، يستدعي صورة الجنّة بما تتضمّنه صلة الموصول، وهي هنا كونها سبق أن ذُكرت وعدًا للمتّقين، فهذا أوان تمثيلها وبيان الخلاصةِ فيها.

سرّ التّعبير بالوعد دون البشارة في الآية:

الوعد إخبار عن محقّق الخبر، والبشارة إخبار بسارٍّ منتظر

آثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد دون البشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنّ البشارة تعني: أوّل خبرٍ سارٍّ[3]، فهي إخبار بخبر سارّ، بخلاف الوعد؛ فلأنّه كلِمَةٌ تَدُلُّ على تَرْجيةٍ بِقَوْلٍ[4]؛ أيْ: إخبارٌ يُرجى وقوعه وتحقّقه مستقبلًا، فالبشارة دالّة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7262.
(2) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، الحديث رقم: (2790).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بشر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

على المسرّة، والوعد دالٌّ على التّحقّق، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد إعلامًا بتحقُّق ذلك وتأكيد حصوله.

دلالة بناء الفعل ﴿وُعِدَ﴾:

آثر النّظم الكريم أن يُعبّر في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بالفعل المبنيّ للمفعول، فلم يُسمّ فاعلٌ للفعل ﴿وُعِدَ﴾؛ لأنّ المقصود هو حصول الوعد الصّادق، لا بيان مَن قام به، فالأهمُّ تحقّق الوعد بالإيفاء بالموعود، كما أنّ في ذلك إيجازًا؛ إذْ قد عُلم أنّ الواعدَ هو الله تعالى[1]؛ لأنَّه سبحانه هو صاحب الوعد، وقد بلَّغت عنه الرُّسُلُ ﷺ، وتلاهم العلماء المبلِّغون؛ فالملاحظ أنَّ إعلان الوعد تعدَّدت مصادره لعلوِّ قدره؛ لذلك بُني الفعلُ لما لم يُسَمَّ فاعله؛ ليكونَ ذلك أوْسَعَ لأهل الدَّعوة في كلِّ زمان ومكان أن يُرَغِّبوا النّاس في تقوى الله بما أعدَّه لهم من الجزاء، ويكون دَوْرُهُم من باب الإعلام.

صِدقُ الوعد، يُغني عن ذكر الواعد

دلالة التّعبير بالاسم ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التّعبير بالاسم، دون الفعل فلم يَقل: (الّتي وعد الّذين اتّقوا)؛ لأنّ التّعبير بالاسم دالٌّ على أنّ الوصف قد ثبت فيهم وصار راسخًا، فالوعْدُ ليس لمجرّد إحداث التّقوى مرّةً أو مرّات، بل لا بدّ أن يكون قد رسخ فيه الوصف وصار ثابتًا لا يزول بمَرّ الزّمن وتقلُّب الأيّام.

وعدُ الله للرّاسخين في التّقوى، بحيازة النّعيم في جنّة المأوى

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

آثَر القرآن الكريم وصف التّقوى في قوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ دون غيره من الأوصاف كالإيمان والإسلام؛ لِما يحمله هذا الوصف من الاجتهاد في البُعد عن المعاصي والتَّرقّي في أسباب الوقاية منها؛ لأنَّ الفعل (اتَّقى) بصيغته يدلُّ على الافتعال الّذي يلزم منه بذل الجهد

التّقوى اجتهاد في البعد عن المعاصي، والتّرقّي في أسباب الوقاية منها

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.

لتحقيق الفعل، بخلاف لفظ الإيمان والإسلام؛ فالأمر فيهما مبنيٌّ على الإعلان الظّاهريِّ والباطنيِّ، ولا يتطلَّب ذلك كبير اجتهاد.

سرُّ الفصْل بين الجنّة وأوصافها:

تنويه بما يناله المتّقون، في أخراهم من جنّات وعيون

فصل النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بين الجنّة وأوصافها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام بسُكّانها ولمزيد العناية بهم، فذكر هذه العبارة باعتبارها صفةً تعريفيّة بِسكّانها قبل أن يشرع بوصفها، فعرّفها بكونها الّتي وعد المتّقون؛ وذلك تنويهًا بشأن هؤلاء المُتّقين، بأن جعلهم عنوانًا للجنّة، كما أنّ فيه حثًّا للمسلمين للثّبات على ما هم عليه من التّقوى.

بلاغة الموقع الإعرابيّ في قوله: ﴿تَجْرِى﴾:

جَريان الأنهار، من أوصاف الجنّة دار القرار

الجملة في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في موضع الخبر للمبتدأ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، باعتبار أنّ مضمون الجملة وهو جريان الأنهار فيها حالٌ من أحوال الجنّة الّتي هي مضاف إليه، فهي بذلك شديدة الملابسة للجنّة؛ لأنّ المتضايفَيْن وثيقا المُلابسة والارتباط، لذلك جاءت خبرًا عن المثل، كما يُقال: صفة زيد أسمر[1]، فـ(أسمر) خبر عن المبتدأ الّذي هو (صفة)، وصحّ ذلك لأنّه حال وصفة من صفات زيد الّذي هو المضاف إليه. وممّا يُذكر في بلاغة التّعبير بجريان الأنهار في الجنة: التَّصوير الجماليُّ للجنَّة، وذلك من جهة بساتينها، فأفضلها وأكرمها منظرًا ما كانت أشجارُه مظلّلةً والأنهار فيها جارية، والحدائق مع جمالها لا تُبهج الأنفس إلّا بجريان الماء فيها.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَجْرِى﴾:

جودة ماء الجنّة وجمالها، حاصلٌ بتدفّقها وجريانها

عبّر النّظم الجليل عن صفات الحُسن في الجنّة، وبدأها بصفة الجري فقال جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فلم يكن الإنعام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

بالأنهار فحسبُ، بل بكونها جارية على الدّوام؛ لأنّ صفة الجري في الأنهار، من أهمّ صفات الجودة فيها، لدلالتها على التّجدّد والدّوام وانتفاء الانقطاع، كما أنَّ توقّف الماء يؤدّي إلى فساده وعفنه.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ للدّلالة على تجدّد جريان الأنهار وعدم انقطاعها، وذلك بانتفاء العوارض الّتي كانت تقع أمثالها في الدّنيا، وفيه تأكيد لمزيد الإنعام، فلم يكن الإنعام بوجود الأنهار في الجنّة وحسب، بل إنّ تلك السّواقي جارية على طول الزّمان، وهذا غاية الجودة في صفة الأنهار.

من تمام الإنعام تـجـدُّد جـريـان الأنهار، وتدفّقها بمشيئة الواحد القهّار

وفيه تصويرٌ لجمالها وحُسنها؛ لأنَّ أحسن المياه ما كان مُتجدِّدًا؛ فالتّعبير بالفعلِ المضارع يُشير إلى أنَّ هذه المياه جديدة مُستجدّة.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ بإدخال ﴿مِن﴾ للدّلالة على ابتداء مكان الجري، وأنّ الماء ينبع من تحتها، ثم يجري من تحت أشجارها، وأنَّه كان بالجهة الّتي هي تحت الجنّة، وهذا يدلّ على تمكّن أهلها من هذه الأنهار؛ فهي تحتهم، وهذا يشعر بقدرتهم عليها لسهولتها. وذهب البقاعيّ إلى أنّ ﴿مِن﴾ دالّة على التّبعيض، فقال: "أدخَلَ الجارَّ للدّلالة على أنّه خاصّ ببعض أراضيها، فقال: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: قصورها وأشجارها"[1].

مـنـابـع جـري الأنـهـار، تنبثق من تحت الجنّة

سرُّ التّعبير بالظّرفيّة ﴿تَحۡتِهَا﴾:

عبّر النّظم الكريم عن مكان الأنهار من الجنّة بالظّرف (تحت)، فقال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ وهو: إحْدى الجهاتِ

الأنـهـار تحت الجنّة لا فوقها، وهي دليلٌ على عظمة من شقّها

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

السِّتّ المُحيطة بالجِرم[1]، وهو مقابل لـ(فوق)، ويُستعمل (تحت) في المنفصل، و(أسفل) في المُتّصل، يُقال: المال تحته، وأسفله أغلظ من أعلاه[2]، أمّا السُّفْلُ: فهو ضدّ العلو، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحِجر: 74]، وأسْفَل ضدّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 42][3]، وعليه فإنّ التّعبير بـ (تحت) الدّالّ على أنّ الأنهار تحت الجنّة لا فوقها هو الجاري على دلالة الظّرف، ولو قال: (أسفلها الأنهار)؛ لدلّ على أنّ الجنّة مرتفعة والأنهار أسفل منها.

دلالة تقديم الظَّرف ﴿تَحْتِهَا﴾:

مكان الجري أبلغ في الإنعام، من ذكر الجاري

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ولم يَجْرِ هذا التّعبيرُ على الأصل: (تجري الأنهار من تحتها)؛ لأنّ بيان كون صفة الجري حاصلة من تحتها أبلغ في إظهار الإنعام، فقُدِّم ما يُعبّر عن مكان الجري على الجاري، كما أنّ تأخير ما حقّه التّقديم فيه تشويق وتفخيم لشأنه.

سرّ التّعبير بلفظ الأنهار مع الجنّة:

الأنهار موطن السُّكنى، ومنبع الغذاء، ومَعين الحياة

دأب النّظم الكريم في بيان النّعم في الجنّة على ذكر الأنهار، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ لِما جرت عليه عادة النّاس من السّكن عند الأنهار ومصادر المياه، ولأنّ الأنهار هي موطن الزّراعة ومَزادَة الغذاء، ولذا أعقبها بذِكْر الأكل، فقال ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

سرُّ البدء بجريان الأنهار من تحت الجنة:

الماء سرّ الحياة والمُعتَمد في اتِّخاذ الأرض مسكنًا

بدأ النّظم الكريم وصفَ الجنَّة بذِكْر جريان الأنهار في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ لأنَّ جريان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تحت).
(2) الرّاغب، المفردات: (تحت).
(3) الرّاغب، المفردات: (سفل).

الأنهار سببٌ للثّمار الّتي ينتج عنها الأكل، ولأنَّ الماء ووفرتَه هي الأصل في اتّخاذ المكان مسكنًا، وقد دأب النّاس على أن يكون جوارُ الماء هو الموطن والمسكن الّذي يَنْزِلون فيه، فإذا عُدمَ الماءُ؛ لَم يَصْلُح المكان لأنْ يُسْكَنَ فيه.

بلاغة المجاز المرسل في الآية:

إسناد الجري إلى الأنهار، لونٌ من التّصوير الجميل، للتّشويق الأثيل للنّعيم المُنْتَظر

أسنَد القرآن الكريم الجري إلى الأنهار في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء الّذي فيها، ويكون ذلك من باب المجاز المُرسل؛ مِن إطلاق اسم المحلِّ وإرادة الحالِّ؛ لأنَّ النّاظر إلى الماء وهو يجري لا يرى النَّهر، لكِنْ يرى الماء، فكأنَّ النَّهر اختفى في الماء والنّاظر لا يرى غيره[1]. ويجوز أن يكون هذا المجاز عقليًّا؛ إذا نظرنا إلى أنَّ التّجوُّزَ واقِعٌ في الإسنادِ.

دلالة(ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

تلوّن معنى تعريف الأنهار، إيغالٌ في وصف الجمال، وتأكيدٌ للروعة

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يجوز أن تكون للجنس، والمُراد أنّها تستغرق جميع أنهار الجنّة الواردة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [مُحمَّد: 15]، ويجوز أن تكون للعهد، والمُراد بها: ما يستحضره السّامع عند ذِكر الجنّات؛ لأنّها من لوازمها وأساس من أُسسِ وجودها، فإذا انعدمت الأنهار؛ انعدمت الجنّات.

سرُّ ذِكر الأكل عقب جري الأنهار:

الأنهار مُستَقرّ الشّعوب، ومنبع الغذاء والتّواصل والتّشارك بين الأمم

أعقب النّظم البليغ جري الأنهار بذِكر الأُكل في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ لأنّ الأنهار هي مستقرّ الشّعوب، فاتّخذها النّاس مواطن للسّكن، لِما كانت تزوّدهم

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/171.

به من مَشربٍ وسَقْيٍ لدوابّهم وزراعتهم، فكان ذِكر الأُكل مناسبًا بعد ذِكر الأنهار، أو كما قال البقاعيّ: "ولمّا كان هذا ريًّا حقيقيًّا في أرضٍ هي في غاية الخلوص والطّيب؛ كان سببًا لدوام ثمرها واستمساك ورقها، فلذلك أتبعه قولَه: ﴿أُكُلُهَا﴾"[1].

وممّا يُذكر في ذلك أنَّ متعة الأكل تأتي بعد متعة النَّظر، ولأنَّ الأنهار سبب في وجود الأكل، فقُدّم السّبب على النَّتيجة، وللإشارة إلى أنَّ وصف الجنَّة بجريان الأنهار وصف لذاتها، والأكل وصفٌ لمنفعتها[2].

سرُّ التَّعبير بالأكل في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

ثمار الجنّة يانعة، تُجنى في كلّ زمان، وتتجدّد ولا تتبدّد

آثر النّظم الكريم التَّعبير بالأكل في قوله تبارك اسمه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دون غيره إشارة إلى ثَمَرِها الّذي يُؤكل[3]، فذِكْرُ الأُكل دون الثّمار يتضمّن إشارة إلى صلاح أكلها على الدّوام.

وفيه إشارة إلى العموم؛ لأنَّ لفظ الأكل اسمٌ لكلِّ ما يُطْعَم، سواءٌ أكان مِن الثِّمار أو من غيرها.

أثر تعدُّد القراءات في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

في تنوّع القراءة القرآنيّة، سعة في الفهم، وتنوّع في التّأويل

تعدَّدت القراءات في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا﴾ بين ضَمِّ الكاف وإسكانها، حيث قرأ عاصم وابن عامر والكسائيُّ وحمزة بضمِّ الكاف، وقرأ الباقون بإسكانها؛ فذهب بعضُ أهلِ العربيَّةِ إلى أنَّ تغيُّر الحركات من باب تعدُّدِ اللُّغات، وذهب آخرون إلى وجود فرق بينهما بناءً على أثر التَّغيُّر الحركيّ فيهما، قال أبو علي الفارسيّ: "الأُكُل بالإسكان مصدر أكلتُ أكلا وأَكَلَة؛ فأمّا الأُكل - بالضّمِّ - فهو المأكول، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]، والمُراد: ما يؤكل منها، وبذلك تكون القراءتان

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/354.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/77.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

جمعتا بين الأكل والمأكول؛ لأنَّ حركة الضَّمِّ تُدَلِّل على بذل الجهد في عمليَّة الأكل"[1].

سرُّ وصف الأكل بالدَّوام في الآية:

سعة الإكرام في الجنّة لا حدود له، والله يُعطي على قدر كماله

أفصح النّظم الكريم عن سعة الإكرام في الجنّة، بقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، فوصْفُ الأُكل بأنّه دائم لا يزول ولا ينقطع[2]، لأنَّ أكثر ما يسرُّ النّفوس دوام الخير والنّعيم، وأشدّ ما يُنغّص عليها التّنعّمَ في الدّنيا إدراكُها أنّ النّعمة زائلة، فبشّرهم الله تعالى أنّ من صفات الجنّة دوامَ نعيمها، كخلود أهلها.

دلالة التّعبير بالظِّلِّ في الآية:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، لاستيعابه المعنى الأشمل

آثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفيْء في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ لأنّ الظّلّ يكون بلا شمس، فهو أعمُّ من الفَيْء، فإنّه يُقال: ظِلُّ اللّيل، وظِلُّ الجنّةِ، ويُقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يُقال الفيْءُ إلّا لما زالت عنه الشّمس[3]، فكلُّ فيء ظلٌّ، وليس كلُّ ظلٍّ فيئًا، والفيْء لا يكون إلّا نهارًا بوجود الشّمس، بخلاف الظّلّ فإنّه يكون في اللّيل والنّهار معًا.

سرُّ حذف وصف الدَّوام مع الظِّلِّ دون الأُكُل:

الإيجاز من معالم الإعجاز، ومن مميّزات التّركيب القرآنيّ بامتياز

اكتفى النّظم الجليل بذكر ﴿دَآئِمٌ﴾ مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، ولم يكرّره مع الظّلّ، والتّقدير: وظلّها كذلك[4]، وهذا من باب الإيجاز؛ فإبلاغ المعنى بأقلّ لفظ من معالم الإعجاز. وفي الحذف فائدة أخرى تجعل السّامع يُكمل العبارة بناء على ما سمع من قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾، وفيه إشارة إلى الاهتمام بالظِّلّ.

(1) الفارسيّ، الحُجَّة: 2/394.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/155.
(3) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

دلالة تأخير الظّلّ بعد الأكل في الآية:

الـضّـروريـات قبل الكماليّات، منهج متوازن في الحياة

أخّر النّظم الكريم ذِكْرَ الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾، فجاء بعد ذِكْرِ الأنهار والأُكل، فرتّب ذِكر تلك النّعم حسب أهمّيتها للحياة، واهتمام النّاس بها، فالمشرب والمأكل هما الأصل في اعتبار صلاح الموضع للسّكن، وأمّا الظّلال فهي من صفات الجودة والكمال، فجاء التّرتيب على وفق نظام الإنسان في الحياة.

بلاغة الكناية في التّعبير بدوام الظّلّ:

دوام الـظّـلّ يُفصح عن وفرة الأشجار، ممّا يسحر القلوب والأنظار

عبّر النّظم الكريم بدوام الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ كناية عن شدّة الْتِفاف الأشجار، بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشّمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافٗا ١٦﴾ [النّبأ: 16]، وقال: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرحمن: 64]، وذلك من محامد الجنّات ومن صفاتها الحسان[1].

وفيه إشارة إلى جمال المتعة وكمال النّعمة، وذلك لأنَّ بلاد العرب – كما يقول الرّازيُّ في تفسيره – كانت في غاية الحرارة، فكان الظِّلُّ عندهم من أعظم أسباب الرّاحة[2].

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾:

تـحـقّـق وجـود الجنّة، لأنّه أمر يُؤخذ باليقين لا بالظّنّ

نزّل النّظمُ الكريمُ الجنّةَ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ منزلة المُشاهَد، وذلك بالإشارة إليها، فاسم الإشارة أفاد أنّ الجنّة حاضرة مشاهدة، وذلك لتأكيد حقيقة وجودها في الغيب؛ والمعنى: "تلك الجنّة الموصوفة بصفتها، وهي الّتي سمعتم أنّها عقبى الدّار للّذين يوفون بعهد الله إلى قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22] إلى قوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: 24] هي الجنّة الّتي وعد المتّقون"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿عُقۡبَى﴾ مع المُتقين والكافرين دون (عاقبة):

إدراك نهايـــة المـطـاف، أبلـغ في إيقاع الخبر، وإيصال البلاغ

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ التّعبير بـ (العقبى) دون (العاقبة) للدّلالة على جزاء الأمر؛ أيّ: مآلهم ومنتهى أمرِهم: الجنّة أوالنّار[1]، ولو قال: (عاقبة) لدلّ على النّهاية دون الجزاء، فالعاقبة ما يأتي عقب الشّيء، فهي دالّةٌ على الختام، أمّا العقبى فهي الجزاء الّذي يكون في النّهاية، وهذا أبلغ في السّياق، فَتبشير المتّقين بأنّ هذا نهاية أمرهم أحسن ما تكون البِشارة، وتفجيع الكافرين بأنّ هذه نهايتهم بحيث تنقطع عنهم الأمانيّ، فهو أشدّ تأييسًا وتبكيتًا لهم.

وممّا يُذكر في سِرِّ التّعبير بـ﴿عُقۡبَى﴾ في جزاء الأشرار والأبرار: الإشارة إلى أنّه جزاءٌ أعقب عملًا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، والله لا يظلم العباد، وإذا كانت الأعمال غير مستوية فالعقبى غير مستوية، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20][2].

سرُّ الموصول وصلته في: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾:

تحقيق التّقوى سبيل الوصول للجنّة، وأداء حقوق الله في كلّ نعمة

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ عن المتّقين الموعودين بالجنّة باسم الموصول دون أن يقول: (عقبى المتّقين)؛ للإشارة إلى سبب تلك العقبى، وهو كونهم أنجزوا التّقوى واتّصفوا بها، فالجملة في حيّز الصّلة تتضمّن تعليلًا للحُكم ولِاسۡتِحۡقاقهم تلك العقبى بالجهد الّذي بذلوه من اتّقاء أسباب الكفر وأنواع الشِّرك حتّى وصلوا إلى الدَّرجة العالية في أمر التَّقوى.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَواْۖ﴾:

التّقوى للعبد مَعْقِد الفلاح، يوم يرجع إليه ويلقاه

آثَر القرآن الكريم التَّعبير بالماضي ﴿ٱتَّقَواْۖ﴾، في قوله: ﴿تِلۡكَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3961.

عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ لأنَّ الماضيَ يُدَلِّل على تحقُّق الوقوع وتمكُّن فاعله منه، وهذا ما يُشير إليه التَّعبير ﴿ٱتَّقَواْ﴾ الّذي يدلُّ على رسوخ التَّقوى في قلوبهم حتّى آتت أُكلها في سلوكهم.

دلالة الواو في: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

دلّت الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ على الاستئناف؛ فالجملة مستأنَفة[1] وفائدة الاستئناف هنا: بيان التّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، فالمناسبة بين الكلام السّابق وهذه الجملة هي التّضادّ، فإنَّهُ لمّا ذَكر أنَّ عُقبى المتّقين هي الجنّة؛ أظهر حُسن هذه العُقبى بذِكر نَقيضِها وهي النّار.

التّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، إنصاف من الله وعدل

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون(المشركين) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ لأنّ لفظ (الكافرين) أعمُّ من(المشركين)، فكلّ مشرك كافرٌ، وليس كلّ كافرٍ مشركًا، فاليهود كفروا بالنّبيّ ﷺ ولم يكونوا مشركين، فالتّعبير بالكافرين في الآية ليعمّ الجميع.

الكفر أعمّ من الشّرك، وكلاهما هلكة وسوء مصير

فمَن أشرك بالله وجعل له شريكًا من خلقه فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: 191].

سرُّ التَّعبير بالاسم ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الكافرين بالاسم دون الفعل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، فلم يَقُلْ: (الّذين كفروا) كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم نالوا تلك العقوبة بسبب ثباتهم على الكفر ورسوخهم به، وفيه إظهار لرحمة الله تعالى؛ إذ إنّه لم يحكم على كلّ مَن كفر بذلك؛

الدّلالة على رُسوخهم في الكفر، تبشيع لحالهم المناوئ لله ورُسُله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

لأنَّ بعضَهم قد أسلم كما هو الواقع مع كفّار قريش، وبذلك يكون الحُكم خاصًّا بمن اتّصفوا بالكفر على وجه الثّبوت والرّسوخ وماتوا على ذلك.

سِرُّ اختلاف أسلوب التّعبير في الآية:

إعـــلاء شـأن المتّقين، وتوبيخ الكافرين، منهج قرآنيٌّ مبين

اختلف أسلوب التّعبير القرآنيِّ في الحديث عن الجزاء المُعدِّ للمتّقين والعقاب المُعدِّ للكافرين، فقال: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، والمُراد: الجنَّة ونعيمها، ومع الكافرين بقوله: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، والمُراد: النّار وعذابها، فالملاحظ أنَّه عبَّر عن الجنّة بالإشارة إليها بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ الدّالّة على البُعد تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، أمّا التّعبير عنِ النّار فجاء بصريحِ اسمها من غير وصف لتعيين العاقبة، فَذَكَرها باسمها المشهور وهو النّار فَحَسْبُ.

بلاغة القصر في: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾:

قـطـع سـبـل النّجاة، أبلغ في شـدّة العـذاب، وبالغ الأذاة

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ أيْ: لا عقبى لهم غيرها، كما يُؤذِن به تعريف الخبر[1]. وهو قصرٌ حقيقيّ؛ إذ عقبى الكافرين كذلك لا بالنّسبة إلى غيرهم، وهو قصر صفة على موصوف، فَقصر الصِّفة – وهي عقبى الكافرين – على النّار، وفيه ما لا يخفى من إطماع للمتّقين وإقناطٍ للكافرين[2].

سرُّ التّعبير بالنّار في الآية:

أقـسى الـعـذاب في دركات النّار، والمـنـتـهى إليها بئس القرار

جاء التّعبير القرآني بذِكر الاسم الصَّريح ﴿ٱلنَّارُ﴾ الّذي يُطلَق على مكان العذاب للكافرين والمشركين؛ عَلَمًا بالغلبَةِ، ولم يذكر بعض دركاتها؛ لأنَّ المقام هنا يتناسب مع جريمة الكفر، فكأنَّ النّار بكُلِّ دركاتها موضعٌ لعذابهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

المُتشابه اللّفظيّ بين آيتي الرّعد (35)ومُحمّد (15):

تشابهت هذه الآية مع قوله تعالى في سورة سيِّدنا مُحمَّد ﷺ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [مُحمّد: 15]، فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها بعد قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾؟

السّياق في (الرّعد) للمقابلة بين جزاء المكذّبين والمتّقين، وفي (محمّد) بيانُ أنواع الأنهار

يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد يسبقها قوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرّعد: 34]؛ فالسّياق قائم على المقابلة بين جزاء المكذّبين، وجزاء المتّقين، وكان جزاء المكذّبين ممّا يشقّ عليهم، ناسبه أن يكون جزاء المتّقين ممّا يطيب لهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾. أمّا الآية في سورة مُحمّد ﷺ، فيسبقها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [مُحمّد: 12]؛ فيُلاحظ أنّ ذِكر الأنهار سبق ذِكر تمثيل الجنّة، فأُريد بيانُ أنواعها، فناسبه قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [مُحمّد: 15].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الظّلّ والفَيء:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء؛ لأنّ "الظِّلَّ يكون لَيْلًا ونَهارًا، ولا يكون الفَيْء إلا بِالنَّهارِ؛ وهوَ ما فاء من جانب؛ أيْ: رجع، والفَيْء: الرُّجوع، ويُقال: الفَيْء: التَّبع؛ لِأنَّهُ يتبع الشَّمْس"[1]، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفَيْء في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾؛ لأنّ ذلك أنسب للجنّة دار النّعيم والخلود.

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، حيث أنّ الفَيْء مشروط بالشّمس دون الظّلّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 307 - 308.

العُقبى والعاقبة:

العُقبى الجزاء في نهاية الأمر، والعاقبة النّهاية

(العاقبة) من كلّ شيء: آخره، وأمّا العقبى فهي: جزاء الأمر[1]، فقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ المُراد منه: بيانُ جزاءِ الأمر؛ ولهذا آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ (العقبى) في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ للدّلالة على الجزاء لا على آخر أمرهم، ولو قال: (تلك عاقبة الّذين اتّقوا) لدلّ على النّهاية، ولكن لا يدلّ على كون ذلك جزاءً لهم، أمّا (العقبى) فهي نصٌّ بكون ما نالوه إنمّا هو جزاءٌ استحقّوه استحقاقًا.

(1) الجوهري، الصّحاح: (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»